القسم الثالث: عروض ووثائق وإصدارات

◆ الرحالة الألمان والجزائر

أ.د. أبو العيد دودو

Les voyageurs allemands et l'Algérie

Pr. Dr. Abou El-Aïd DOUDOU

Cette étude aborde la contribution historique de voyageurs allemands qui ont connu le pays en tant que participants à l'expédition française, légionnaires, savants, prisonniers de guerre ou simples voyageurs. Leurs écrits étaient basés sur l'observation directe et les sources disponibles. Ils voyaient en Algérie une terre nouvelle à coloniser et donc à connaître d'où leur intérêt pour l'histoire, la géographie et les coutumes du pays. Les écrits des voyageurs allemands constituent, à cet effet, des sources importantes pour l'histoire de l'Algérie au XIXè siècle et à l'époque de l'expansion coloniale française.

ليس علاقة المؤرخ بالتاريخ هي علاقة الرحالة به، فارتباط المؤرخ بالتاريخ أوثق، وصلته به أمتن، لأنه يتعامل بالدرجة الأولى مع الوثائق المتنوعة، التي تمكنه من المعرفة التاريخية، ويخضعها لميزان العقل والمنطق والمعقول، ومع ذلك يمكننا أن نعتبر الرحالة الألمان -أو البعض منهم على الأقل- الذين كتبوا عن الجزائر، مؤرخين على نحو ما، سواء أكانوا ممن شاركوا في الحملة الفرنسية أم كانوا جنودا في الفرق الأجنبية أم علماء في إطار اللجان العلمية المتخصصة أم أسرى حرب أم رحالة فعليين أم غير ذلك. فمثلما اعتمدوا على ملاحظاتهم ومشاهداتهم الخاصة، عادوا كذلك إلى المصادر والوثائق التاريخية، التي كانت في متناول أيديهم، واستفادوا منها في توضيح ماضي الجزائر وحاضرها التاريخيين، ومن ثم فمن النادر أن نجد بينهم من لم يهتم بتاريخ الجزائر في طور من أطوارها، ويحاول أن يقدم صورة عنه، ولو كانت مختصرة غير وافية، فالمهم بالنسبة إليهم أن تفي بالغرض الذي وضعه بين عينيه، وهو إطلاع مواطنيه على ما كان في القضية كلها من جدة وإثارة. وكثيرا ما تكون هذه الصورة تمهيدا لدراسة نفسية الشعب الجزائري، وعاداته وتقاليده، وأساليب حياته وطرق معيشته، ولما تخلفه الأحداث التاريخية في ذلك كله من آثار وسمات خاصة، بعبارة موجزة لربط ماضيه بحاضره

بشكل يسمح له بإصدار أحكام تقوم على المعرفة به من وجهة نظره على الأقل. وهذا ما يجعل هذا الرحالة، الذي قد يعيش بعض الأحداث تجربة واختبارا، يختلف عن ذلك المؤرخ في تناول التاريخ واختيار الفترة الملائمة للجوانب التي يريد معالجتها في إطارها المحدد.

وكانت لهم في ذلك مصادر متنوعة، تأتي في مقدمتها المصادر التاريخية المحضة وكتب الرحلات، سواء أكانت ألمانية أم أجنبية، على أن الأولى كانت قليلة، رغم وجود علاقات بين الجزائر وعدد من الإمارات والدويلات الألمانية تعود إلى القرن الثامن عشر، يضاف إلى ذلك التجارب الشخصية والروايات الجزائرية والأجنبية بناء على السماع حينا والمشاهدة والمعاينة حينا آخر. وهذه المصادر في نظري أهم بكثير من غيرها، لأنها تقوم على تجارب أناس عاصروا الأحداث، وتمكنوا من رؤيتها وتأملها عن قرب، وعرفوا حقيقتها والطريقة التي تمت بها، وقلما يلحقها التشويه، خاصة إذا كانت قد صدرت عن إنسان عادي، لا مصلحة له في التزوير، وتم تسجيلها من قبل رحالة نزيه، ولو أنه من الصعب على الدارس أن يتأكد فيما بعد من نزاهته بشكل قاطع لعدم توفر المصادر المماثلة.

وقد يتميز سيمون بفايفر، وفندلين شلوصر، ويوهان كارل بيرت عن غيرهم من الألمان، وذلك من حيث إنهم إعتمدوا على تجاربهم الشخصية وعلى ما سمعوه من أفواه الجزائريين. فقد أكد سيمون بفايفر (أنظر رحلاتي وسنوات سجني الخمس، ص 101) أنه ينقل ما رواه له الجزائريون. صحيح أنه هو نفسه لم يقدم أي ضمان على صحة ما سمعه من روايات، ولكنها في اعتقاده، توضح بعض ما ورد في المصادر الفرنسية. وقد تكون هذه التحفظات، التي أبداها بفايفر إزاء الروايات الجزائرية، دليلا على صدقه ونزاهته، (ص 5) بأنها تمتاز بالبساطة والواقعية والصدق. وهذا ينطبق على كتابه المذكور، كما ينطبق أيضا على كتابه الثاني، الذي جعل عنوانه «الجزائر كما هي» ونشره عام 1933، وقد قدمت ترجمته تحت عنوان «الجزائر حكومة وشعبا» ونشر مع الكتاب الأول في طبعته الثانية (دار هومة، 1998)، فقد أكد لنا في مقدمته القصيرة، وهو يتحدث عن طبائع السكان وعاداتهم وتقاليدهم وعن الوظائف الحكومية في البلاد وعن تصرفات ذوي السلطة تجاه المواطنين، أنه لم يذكر لقرائه إلا تلك المعلومات، التي تأكد منها بنفسه، أو تلك التي يستطيع أن يقدم الضمان على صحتها. وهناك بعض المصادر الوطنية تؤكد صدق بفايفر، ومنها على سبيل المثال مذكرات الشريف الزهار المعروفة.

وتحدث فندلين شلوصر في مذكراته، التي سبق لي أن نشرتها تحت عنوان «قسنطينة أيام أحمد باي»، (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980)، عن حياته الخاصة في

الأسر، فذكر أنه عمل بستانيا عند المرابط سيدي علي بن عيسى في الأخضرية، ثم مروضا لسباع أحمد باي في قسنطينة، كما وصف المعارك، التي شارك فيها دفاعا عن المدينة خلال الحملتين الأولى والثانية من ناحية، ودفاعا عن مولاه عند خروجه لمحاربة أعدائه من ناحية أخرى، وأورد تفاصيل لا يمكن العثور على مثلها في أي مصدر آخر، لا سيما فيما يتصل منها ببعض الخفايا والأسرار التي لم يتحدث عنها الباي نفسه في مذكراته الخاصة، وكذلك فيما يتصل ببعض العادات والتقاليد والاحتفالات الدينية، بصورة واقعية مثيرة للإعجاب، دون أن يدع لنا مجالا نستشف منه بصورة من الصور ميله إلى تضخيم الأمور واختلاق الظروف المناسبة لها، أو تظهر لنا منه رغبته في نكران جميل من أحسنوا إليه، وعاملوه معاملة طيبة، وكان في هذا شبيها بسيمون بفايفر، الذي أبدى بدوره أمام أصدقائه وزملائه ترفعا عن مثل هذه الأمور.

وكذلك تحدث يوهان كارل بيرنت في كتابه «عبد القادر أو ثلاث سنوات من حياة ألماني بين العرب»، الذي نشره عام 1840، -وقد ترجمته ونشرته تحت عنوان «الأمير عبد القادر» (دار هومة 1997)- عن حياته الخاصة في كنف البركاني بالمدية أولا، ثم في مليانة، وروى لنا كيف التحق بعدها بجيش الأمير عبد القادر، وقضى معه حوالي سنتين، ارتقى من خلالها إلى ضابط من ضباطه، وشارك في بعض المعارك، التي خاضها رجال الأمير وأظهر فيها الكثير من الشجاعة والبسالة والبلاء الحسن، وكأنه يدافع عن بعض مقدساته، حتى إنه طلب من الأعداء الفرنسيين، الذين شاركوا في تلك المعارك، أن يذكروا دائما أن ذلك الفارس، الذي كان يرتدي كذا وكذا من الألبسة العسكرية، لم يكن أحدا غيره هو، وقد كان ذلك يعني بالنسبة إليه الفخر والاعتزاز بالقضية التي كان موقفه يتطلب منه الدفاع عنها وإن هي لم تكن قضيته. ومن النادر جدا أن يجد المرء في كتب أخرى ما يشبه وصفه لمعارك الأمير، التي شارك فيها وكان للأمير فيها النصر أو الهزيمة، سواء أكانت ضد عدوه أو ضد الخونة من أبناء وطنه، ويروي لنا بيرنت فوق ذلك أحداثا، ويسجل تصرفات وسلوكات خاصة، حتى فيما يتصل به هو نفسه، ويصف بعض العادات والتقاليد البدوية المتصلة بحفلات الزواج وغيرها، يندر كذلك أن يعثر الإنسان على مثيل لها في مكان آخر.

واعتمد فيلهلم شيمبر على ملاحظاته الخاصة وعلى ما حدثه به بعض الجنود، الذين كانوا قد شاركوا في عدة معارك، وكان لهم دورهم في ارتكاب الجرائم والقيام بالاعتداءات، وكان من بينهم جنود من أبناء بلاده، سبق لهم أن وصلوا إلى الجزائر مع الحملة الفرنسية من جهة، واستمد بعض معلوماته من جهة أخرى من الجزائريين، الذين أتيح له أن يقيم معهم علاقات ودية. وحين يتحدث شيمبر عن العقيدة الإسلامية وتاريخها

وتعاليمها يلجأ إلى من كتب عن هذا الموضوع، وما ذكره يشبه إلى حد كبير ما ورد في كتاب الراهب الفرنسي دان «تاريخ البرابرة والقراصنة»، الذي نشره عام 1637، مما جعل حديثه هذا ذا صبغة صليبية واضحة، ولكن هذه الصليبية تنعدم بمجرد أن يبدأ بوصف علاقاته بالجزائريين وصلاته بهم والحديث عن انتشار المدارس التعليمية، وكثرة المتعلمين، وتنوع المعارف التي كانوا يتلقونها فيها في حدود معينة. وقد أورد شيمبر أغنية جميلة حزينة، تتضح منها اللوعة، التي عانى منها الجزائريون بعد أن شردهم الحملة الاستعمارية في طول البلاد وعرضها، داخل الوطن وخارجه.

وإذا كان شيمبر قد اعتمد على مراجع أغلبها أجنبية، خاصة في حديثه عن تاريخ الجزائر، فإن مواطنه فرديناند فينكلمان يعتمد في كتابه «تاريخ احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830»، الذي أصدره عام 1832، على سيمون بفايفر وعلى مصادر فرنسية متنوعة، ولا سيما كتاب ضابط الحرس الفرنسي رونودو، الذي ترجم إلى الألمانية في هذا الظرف المناسب ونشر سنة 1830، مع أنه كان قد صدر بالفرنسية قبل ذلك ببضع سنوات. واستفاد كذلك مما كتبه الشاعر الايطالي فيليبو بنانتي في كتابه «مغامرات فيليبو بنانتي وملاحظاته عن سواحل البلدان البربرية»، كان قد ترجم إلى الألمانية أيضا وصدر عام 1824، ومن الجائز أن يكون قد استفاد من مصادر أقدم، منها على سبيل المثال كتاب القنصل الإنجليزي «دول القراصنة»، الذي نشرت ترجمته الألمانية سنة 1753، وتحدث فيه مؤلفه عن مظاهر الحياة المختلفة في دولة الجزائر.

أما الأمير النمساوي فريدريش شفارتنبيرغ، فقد شارك في الحملة الفرنسية، وهو لهذا يعتبر شاهد عيان فيما يخص تاريخ هذه الحملة والاحتلال، الذي أعقبها، مما يجعل لكتابة أهمية كبيرة. وتقوم الفصول الأخيرة من كتابه «التفاتات إلى الجزائر واحتلال القوات الملكية الفرنسية لها في سنة 1830»، الذي صدر عام 1937- تقوم على ملاحظاته الخاصة، التي كان قد حرص على تسجيلها في يومياته، وقد سجل على الجزائريين، بل على حكام الجزائر من الأتراك أنهم لم يكونوا جادين في هجماتهم على المحتلين، وأنهم اقتصروا على تزويد قلعة الأمبراطور بالمدافع دون سواها، ولذلك تمت عملية الإحتلال بسهولة كبيرة.

أما الفصول الأولى، التي ضمنها القسم الأول من كتابه، فقد اعتمد فيها على الرحالة الإنجليزي توماس شو، صاحب كتاب «رحلة طوماس في ولاية الجزائر»، الذي صدرت ترجمته إلى الألمانية عام 1765، ويبدو أن الألمان قد حرصوا على ترجمته لما يزخر به من معارف متنوعة تتصل بالفنون والعادات والتقاليد والعمارة ونظام الحكم وغير ذلك. واعتمد شفارتنبيرغ كذلك على ف. شيلر، القنصل الأمريكي، مؤلف «موجز الجزائر» الصادر عام 1826.

وسلك الطبيب الدنماركي آدولف فون شونبيرغ، وقد اعتبرته ألمانيا لاسمه ولقبه أولا، ولوضعه كتابيه بالألمانية ثانيا، الطريق نفسه، فقد شارك هو الآخر في الحملة وسجل في الفصل الأول من كتابه «نظرات على الاحتلال الأخير للجزائر وتاريخها واستعمارها الحديث»، الذي نشره عام 1839، اعتمادا على يومياته، التي كتبها في الميدان، كما صرح هو نفسه بذاك، وترجم في الفصل الثاني لثمانية من دايات الجزائر، ابتداء من الداي مصطفى (1798-1805) إلى حسين باشا، الداي الأخير، وقد نشرت ترجمته لكل منهم في الطبعة الثانية من كتابي «الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان» (المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 39-76)، ولم يغفل الإشارة في مقدمة هذه الترجمة إلى مدى ما كانت تتمتع به الجزائر من مناعة عجزت الدول الأوربية عن اختراقها. وكتب تاريخهم اعتمادا على معلومات، زوده بها شخص، لم يذكر اسمه، عاش في الجزائر أيام الحكم التركي مدة طويلة، وكان شاهد عيان لما رواه من أخبار وما قدمه من معلومات، ولكن شونبيرغ لم يكتف به، بل استعمل مصادر أخرى، لم يحدد طبيعتها، تتصل كلها بالفترة القصيرة التي سبقت الاحتلال وتمتد إلى فترة أخرى يحددها ببداية الأخبار القيمة، التي بدأ بتسجيلها شخص يدعى ليفزن (Lewsen)، لم أتوصل -للأسف- لا إلى معرفته ولا إلى معرفة ما كتبه من هذه الأخبار، التي يصفها شوبيرغ بالقيمة، وكان غرضه كما قال تقديم صورة عن ماضي الجزائر وحاضرها ومستقبلها. وإننا لنجد في مذكرات الشريف الزهار ما يؤكد بعض المعلومات، التي أوردها في كتابه، خصوصا ما يتعلق منها بتراجم دايات الجزائر. وكانت مصادر الفصل الثالث والأخير، الذي تناول فيه المناخ الجزائري والحركة الصناعية والتجارية، بناء على وثائق وتقارير رسمية، فرنسية بحتة، باستثناء الصفحات الأخيرة منه، التي ضمنها تقارير لقنصل الدنمارك في الجزائر عن الحركة البحرية.

وللمؤلف كتاب آخر عنوانه «الجزائر من الوجهة الطبية»، نشره عام 1837، وتناول في قسم منه الأحوال الجوية، التي رافقت الاحتلال، يمكن أن يستفيد منها المؤرخ في ربط الأحداث التاريخية، وخاصة الكبيرة منها، بالأحوال الجوية بعضها ببعض، كما يمكن أن يستغلها الأديب في وصف معركة أو في وصف حادثة معينة بصورة واقعية، ثم إنها لا تخلو كذلك من إشارات تاريخية، قد يكون لها مكانها في السياق العام. وتحدث في القسم المتبقي عن المناخ في الجزائر وعن الجزائريين وأساليب معيشتهم وما يكتنفها من ميول وشهوات، وعن الأمراض، التي يستعملونها في معالجتها، كما تحدث عن المتسولين والدراويش والفقراء وعن المؤسسات الصحية كالمستشفيات والمصحات بأنواعها المختلفة الفرنسية وغير الفرنسية وعن الأطباء العاملين في كل منها. وقد ترجمته تحت عنوان

«الطب الشعبي الجزائري في بداية الاحتلال»، ونشر مسلسلا في جريدة «الشعب» عام 1992، ولم أتمكن حتى الآن، رغم إلحاح بعض الأطباء علي، من نشره في كتاب، يستفيد منه العامة وأصحاب الاختصاص على حد سواء.

ويعتبر موريتس فاغنر أفضل من غيره بكثير، فقد تحدث في كتابه «رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836، 1837، 1838» (1841)، عن المصادر التي اعتمد عليها. فتناول في المقدمة، وهذا ما لم يفعله غيره من الرحالة الألمان، تلك المصادر على هذه الصورة، فأخذ مثلا على الرحالة توماس شو الإنجليزي، وبصونيل الفرنسي، وقد نشر كتاب هذا الأخير عام 1838، أن كتابيهما يتسمان بالجفاف ويهتمان بجانب واحد، ويشير (ص 17) إلى أنهما وجها اهتمامهما دراسة الآثار وتوصلا -كلاهما- إلى تسجيل معارف جيدة عنها، ولكنهما نسيا في غمرة دراستهما لها الإنسان، الذي هو، على حد تعبير الشاعر غوته، أهم شيء في أي مكان من العالم. وقد شكا المؤلف الألماني من عدم صدور كتب جديدة عن الجزائر منذ الاحتلال، فالكتب العشرون أو الثلاثون، التي صدرت حتى ذلك الحين، تقتصر على معالجة الناحية السياسية أو الناحية الاستعمارية، ويفضل من بينها «الحوليات الجزائرية» لبيليسي، ويعترف بأنه لا يعرف من كتب الرحلات الحديثة سوى ثلاثة كتب، أما البحوث العلمية فهي متناثرة في المجلات المتخصصة.

وهذه الكتب هي «رسائل من الجنوب» للشاعر الإنجليزي توماس كامبل، و«سيميلاسو في إفريقيا» للرحالة الألماني بوكلر-موسكو، (وقد ترجم الدكتور سعد الله رسالتين له عن الإنجليزية وقدم لهما، تتصلان بمدينة عنابة، أنظر: تجارب في الأدب والرحالة، المؤسسة الوطنية للكتاب 1983، ص 273-290) و«رحلة في ولاية الجزائر» للرحالة الفرنسي روزيه. ويصف الأول بأنه كان شاعرا أنجح منه رحالة، فما يجده الإنسان عنده أقل مما يجده في انطباعات السائح العادي، بينما يصف الثاني بأنه أكثر سطحية من الأول وأنه أصلح لوصف الحياة في قصور النبلاء منه لوصف الحياة البدوية واكتشاف حقيقتها. أما الثالث فيفضله عليهما (ص 91)، ولو أنه اكتفى بوصف مدينة الجزائر والبليدة والمدية ووهران، ويثني على مواطنيه شيمبر وميلتس، اللذين قدما أشياء قيمة عن مدينة الجزائر، ولم أطلع للأسف على كتاب ميلتس المذكور، فلعله قد أورد هو الآخر أشياء جديرة بالاعتبار.

ويذكر فاغنر (ص 21) أنه كتب القسم التاريخي عن الجزائر بعد دراسة دقيقة للمصادر القديمة والحديثة، واستمد معلوماته عن تاريخ الجزائر الحديث من الحوليات الجزائرية لبيليسي، ومن محادثاته مع بعض الشخصيات الهامة، التي عاشت الكثير من الأحداث التاريخية. فنقل عن صديقه الضابط السويسري مورالت قصة اللقاء، الذي تم

بين الأمير عبد القادر وبوجو في التافنة، وقد ترجمت ما كتبه عن هذا اللقاء تحت عنوان «الوجه الآخر لمقابلة التافنة» (الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1989، ص 91). وأخذ فاغنر أيضا بعض المعلومات عن المارقين الألمان، كما يسميهم، الذين عاشوا في الجزائر مدة طويلة، وخاصة مارق يدعى بودوان، قال عنه إنه أصبح عربيا بأتم معنى الكلمة، يحسن اللغة العربية، ويتكلمها مثل أي رجل من رجال الدين! ثم عن مارق ألماني آخر، اتخذ اسما عربيا، وهو بن حميدو، واسمه الحقيقي غايستنغر، حارب إلى جانب الأمير عبد القادر في عدة معارك، من بينها معركة المقطع الشهيرة، وكان فاغنر قد التقى به أيام إقامته بمدينة معسكر، عاصمة الأمير. وكان الأمير قد وجهه بعد معركة المقطع إلى المغرب ليسلم هدية إلى السلطان مولاي عبد الرحمن، وهي عبارة عن عربة للذخيرة، غنمها الأمير في معركة المقطع المذكورة. ويذكر فاغنر أن الأمير قال لغايستنغر عند سفره إلى المغرب: «ابق هناك إذا شئت. أما إذا كنت تحبني، فما بي حاجة إلى أن آمرك بالعودة!» فسافر إلى المغرب، وكان قد أسلم في أثناء ذلك، واشترى هناك مقهى بالمال، الذي كان قد زوده به الأمير، إلا أنه لم يلبث أن عاد إلى سيده. وقد يكون في هذه الفترة ما يبين مدى تعلق بعض الأوربيين بشخصية الأمير الساحرة. وذكر كذلك ثلاثة ألمان آخرين، هم فندلين شلوصر، وقد سبق ذكره، وسند، وكان مديرا لمعمل الأسلحة في مدينة تلمسان، وبيرنت، الذي ذكر أعلاه أيضا، وقد تحدث في كتابه «الأمير عبد القادر» (ص 87 وما بعدها) مطولا عن صديقه حميدو ومغامراته بين العرب في المنطقة الغربية.

ويعترف فاغنر أيضا بأنه قد أخذ بعض المعلومات عن المواطنين الجزائريين، وأشار إلى أحداث بالغة الأهمية، شارك فيها بنفسه، فسجل في كتابه ما شاهده في الحملات الثلاث، التي شارك فيها عضوا في اللجنة العلمية، وهي حملة البليدة ورغاية وقسنطينة. وقد استمر في تسجيل مذكراته إلى أن ترك الجزائر في شهر يونيو 1838، وكان ذلك بعد أن زار جميع الأماكن، التي كانت فرنسا قد احتلتها في ذلك الحين وتمت لها السيطرة عليها، كما زار بعض المناطق التابعة لدولة الأمير، وقد ترجمت زيارته لها ونشرتها في كتابي عن الرحالين الألمان (ص 125-176). ومن الجدير بالذكر في النهاية أن الجزء الأول من كتاب فاغنر يضمن وصفا للمدن والسهول والمناطق الجبلية، التي زارها مع الحملة الفرنسية أو بصفة شخصية، وبعض المظاهر الاجتماعية المتنوعة. ويتضمن الجزء الثاني، الذي شارك في كتابته أخوه رودولف، وصفا للحيوانات والنباتات، التي تزخر به الجزائر. أما الجزء الثالث، فيتضمن أحداثا تاريخية متنوعة، يمزج فيها بين التاريخ القديم والحديث، ويترجم لبعض الشخصيات، التي كان لها دورها في

المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي، وفي مقدمتها ترجمته لحياة الأمير عبد القادر، والحاج أحمد باي، وفرحات بن سعيد وغيرهم، كما يقدم نبذة عن المدن، التي أنشأها الأمير بعد مدينة تاقدامت، مثل تازة وسعيدة وطفراوة وغيرها.

أما كارل فون ديكر فقد رجع في وضع كتابه «الجزائر والحرب الدائرة هناك»، الذي نشره عام 1844، إلى كتابات بيليسي، وبوكلر موسكو وروزيه، وفاغنر. وكان هو نفسه قد زار الجزائر، فيما ذكر، عام 1842 ليكون قريبا من أحداث الحرب وأوضاعها الخاصة. وأوضح ديكر في مقدمة كتابه أنه لا يريد كتابة تاريخ الحرب الدائرة في الجزائر، كما أنه لا يريد أن يكتب التاريخ الحضاري لشعب الجزائر الجدير بالاهتمام، فتاريخ ذلك كله لم يحن بعد وقت كتابته، وإنما أراد الحديث عن الحرب الجارية في الجزائر، واعتمد كذلك على ما كتبه فريدريش شفارتسنبيرغ، ونقل بعض فقره ليستشهد بها. ويصف ديكر كتاب فاغنر بأنه أحسن كتاب صدر عن الجزائر في اللغة الألمانية، ويحذر القارئ من أن يتصور أن موريتس فاغنر متعصب لفرنسا، لأنه أهدى كتابه إلى ولي العهد الفرنسي، فالواقع في نظره خلاف ذلك، وينصحه بالمضي في القراءة، حتى يكتشف بنفسه ما يوحي به الإهداء. فمواطنه في نظره بعيد عن التعصب، إذ كان همه الأول والأخير إعطاء صورة صادقة عن الجزائر في جميع الميادين التاريخية والاجتماعية!

وهناك من الألمان من لم يعتمد على من سبقه إطلاقا، وإنما اكتفى بتسجيل تجاربه الخاصة. وهذا ما فعله كليمنس لامبينغ في كتابه مذكرات عن الجزائر، الذي نشره عام 1944، عندما وصف أصدقاء الجزائريين، لا سيما أولئك الذين ينحدرون من أصل أندلسي، وقد كانوا يمثلون بالنسبة إليهم الأصالة العربية، وقد جمعتهم به معرفته بأرض الأندلس بالغناء الأندلسي وأمجاد العرب فيها، فكانت دموعهم تسيل وهم يستمعون إلى الألحان الأندلسية! وأقام فيها فترات متفاوتة، ووصف إلى ذلك بعض الملوك، التي شارك فيها، منها معركة ضد الأمير عبد القادر، ويذكر أنه رأى الأمير من بعيد وعبر عن إعجابه به، وقد اختصر تجربته في مشاركته هذه بقوله: «لقد تعلمنا القسوة من رجال القبائل، الذين كانوا يدافعون عن وطنهم أكثر مما تعلموا منا الإنسانية والمدنية!» ويختم كتابه بهذه الفقرة، التي استمدت دلالتها وصدقها من وضع كان قائما، وأصبح الآن أبعد مدى وأشد خطرا في عهد الحرية، وإن اختلفت وسائل ظهوره وطرقه:

«لو استطاع هؤلاء الناس أن يكونوا شعبا واحدا.. لو أن هذه القبائل اجتمعت على كلمة واحدة.. لو وحدت بينها الأخوة الصادقة، لأصبحت أمة من نوع فريد! إنها حينئذ لن تتحدى فرنسا وحدها، وإنما ستتحدى العالم كله، إلا أن بذرة الفساد فيها تتمثل في أن القبيلة منها تغير على الأخرى، والطائفة منها تغالب الطائفة وتحاربها، مما جعلها

لقمة صائغة بالنسبة إلى الفرنسيين، الذين يضحون بكل شيء من أجل تقوية هذه العداوة، لأنها كسب لهم، وقد نجحوا حتى الآن في أن يجعلوا الجزائريين يتربصون بالجزائريين ويعلنون عليهم حربا مبيدة»!

وقد يكون من الضروري أن نتساءل بعد هذا عن الأسباب، التي حملت الألمان على الاهتمام بالجزائر، والعناية بتاريخها، والحرص على وصف مظاهر الحياة فيها بكل ما عرف به الألمان من ضبط وإحكام ودقة. والواقع أن هذه الأسباب تكاد تكون واحدة عندهم جميعا، فهذا ما تثبته لنا تصريحاتهم على الأقل. لقد اعتبر الألمان احتلال الجزائر، الدولة القوية، التي كان يحسب لها ألف حساب لما لها من سيطرة على الحركة البحرية في البحر الأبيض المتوسط، أهم حادثة وقعت في القرن التاسع عشر، لأنهم أدركوا أن هذا الاحتلال ستكون له أبعاد سياسية في إفريقيا وأوربا على حد سواء. وكان في مقدمة ذلك أنه فتح أمامهم آفاقا جديدة، ويسر لهم سبل السفر والتنقل والمغامرة في قارة تعد جديدة بالنسبة إليهم. وكانت الهجرة إليها تتطلب بطبيعة الحال معرفة بظروف المهجر وأوضاعه المختلفة، ومن هنا كان لا بد للمهاجر من كتب وأدلة سياحية، وخاصة إذا كانت البلاد، التي يريد أن يهاجر إليها، لا تتطلب منه سوى الوصول إلى الضفة الجنوبية خلال يوم واحد، ثم إنها خصبة التربة، فاتنة المناظر، شاسعة الأطراف، تتبارى فيها زرقة البحر وزرقة السماء في أيام السنة.

لم يدع بفايفر صراحة إلى الهجرة، فقد كانت ظروف الأسر هي التي قادته إلى الجزائر، ولم يجيء إليها مختارا، ولكنه تحدث (ص 231) عن روعة الجزائر وخصوبة أراضيها، فيقول: «كثيرا ما فكرت بعد عودتي إلى أوربا، في دولة الجزائر، وفي وضعها السابق وكذلك في وضعها الراهن، وفي الوضع الذي يمكن أن تكون عليه في المستقبل. لقد آلمني أن تظل هذه البلاد الرائعة في بعض أجزائها، الغنية بمنتجاتها، التي يمكنها أن تمد الملايين العديدة بالطعام والغذاء، وتكون بالنسبة لأصحابها الجدد ذات منافع لا حدود لها، هكذا قفراء غير مستغلة»! هذا ما يقوله عنها دون أن يشير أدنى إشارة إلى سكانها الأصليين، مما قد يدل على أنه نسي أولئك الذين أحسنوا معاملته، فامتنع عن محاربتهم بعد ذهاب الأتراك، وفضل العودة إلى بلاده!

ويرى شفارتسنبيرغ النمساوي (ص 3-4) أن ما حدث في شمال إفريقيا قد جلب انتباه الرأي العام، نظرا إلى ما سيكون للوجود الفرنسي في شمال القارة الإفريقية من أثر كبير في تاريخ العالم، ولذلك فإن كتابه سيكون -في تصوره- ذا أهمية كبيرة، لأنه يتضمن وصفا متنوعا وبعيدا عن التحيز للحملة الفرنسية، حرص شاهد عيان على وضعه. وهو يعتقد أن رواية الأحداث، التي تأتي متأخرة، تعتبر أصدق من الأخبار

الأولى، لأن هذه غالبا ما تكون متحيزة، تتحكم فيها الميول والأهواء والأحكام المسبقة. ويؤكد على ضرورة المعلومات، التي يقدمها في كتابه، وعلى أهميتها بالنسبة إلى المؤرخ والسياسي والعسكري، فالنزول في شواطئ أجنبية يتطلب معرفة بخصائصها وأوضاعها السياسية وأجواء مناخها وطبيعتها، لا سيما وأن موانئ شمال إفريقيا ستكون ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى أوربا.

ويقدم شيمبر (ص 160 وما بعدها) نصائح لمواطنيه، الذين يرغبون في الهجرة إلى الجزائر، فينصحهم بعدم الاختلاط بالسفلة والأوباش، الذي قدموا إلى الجزائر للسلب والنهب، ويحدد لهم الأماكن، التي يتعرضون فيها لهجمات العرب، ويصف لهم الطرق، التي يجب اتباعها للحصول على رخص الهجرة من الدوائر المعنية، كما يحدثهم عن وسائل العيش في الجزائر وغلاء المعيشة فيها، ويحذرهم من الالتحاق بالفرقة الأجنبية، ويطلب منهم أن يتجنبوا تصرفات معينة، صدرت عن بعض مواطنيه، فكانت نتيجتها أن أصبح الألماني محتقرا في الجزائر.

وقد يستغرب المرء أن يجد عالما طبيعيا، مثل فاغنر، جاء إلى الجزائر لينظم إلى اللجنة العلمية، أن يفتخر (ج 1، ص 5) بأن بلاده تشارك في تأسيس المستعمرات الأوربية في شمال إفريقيا، فالجندي الألماني يحارب إلى جانب الجندي الفرنسي، والفلاح الألماني يقوم بإصلاح الأراضي إلى جانب المعمر الفرنسي، والعالم الألماني يعمل مع العالم الفرنسي لاكتشاف تاريخ إفريقيا القديم. ولعل القارئ يزداد استغرابه عندما يجد فاغنر، وهو الذي مدح ديكر عدم تحيزه، يفخر بأن الهدف من ذلك كله هو نشر الحضارة، التي كانت في القديم مزدهرة عامرة، وبعث روح الحرية، وقد كانت في ذهنه أثناء ذلك ولا شك العهود اللاتينية القديمة. ويأمل (ص 20) أن يكون كتابه دليلا أمينا للسائح والمهاجر، الذي يريد أن يستقر في الجزائر بصفة دائمة، ومصدرا مهما لمن يهتم بدراسة الشعوب وطباعها وعاداتها وتقاليدها وأساليب معيشتها الخاصة. ولا يغفل هو الآخر التأكيد على الأهمية، التي يكتسبها شمال إفريقيا يوما بعد يوم، لأن فرنسا في زعمه ستعلم سكان الجزائر أن وظيفة الإنسان لا تتمثل في محاربة أخيه الإنسان، وتمزيق لحمه، وإهمال أراضيه الجميلة الخصبة المعطاة، ويبدو أن منطق العصر والعقلية الاستعمارية السائدة في ذلك الحين قد أنسياه أن فرنسا جاءت إلى الجزائر لمحاربة الإنسان في أرضه وربوع حماه، وشاركت بلاده في ذلك بشكل أو بآخر.

وإذا كان أغلب من تحدث عن الجزائر من الألمان، أو الناطقين باللغة الألمانية من نمساويين وسويسريين، وخاصة في الفترة التي أعقبت الاحتلال، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكورة، فإن المؤلف النمساوي أدولف شترال قد تناول إضافة إلى ذلك جانبا

لم يتعرض له غيره فيما أعلم. فهو يقدم لنا في كتابه «صور شمسية جزائرية»، الذي نشره في مدينة فيينا عام 1842، قصصا وحكايات عن الجزائر، وقدم لنا في قسم منه شخصيات جزائرية وأجنبية، وحلل عواطف بعضها نحو البعض الآخر، وقد أخضع أسلوبها فيها لموجة الرومانسية، التي كانت قد ظهرت قبل ذلك بسنوات، كما صور طبيعة بعض المعمرين ومظاهر الجشع، الذي حملهم على الهجرة إلى الجزائر.

وقد قسم شترال كتابه إلى أربعة أقسام، ضمن القسم الأول قصصا، هي انتقام الحضري، والمعمر المخدوع، ومغامرة خطيرة، وضمن الثاني أربع حكايات، وهي الساحر، وصيد الضباع في نواحي الجزائر، وحسن وإسماعيل، واليهود في إفريقيا. أما القسم الثالث، فقد ضمنه نبذة عن تاريخ الجزائر، وحديثا عن عالم النباتات، وصورة الجزائر الراهنة، والحمامات الحضرية، وحضريات مدينة الجزائر، وينهي ذلك بالحديث عن سهل المتيجة وقبر الرومية، وفي كتاب «الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص 177-192)» خلاصات لكل ذلك وترجمة كاملة لإحدى قصص هذا الكتاب.

ولا أحب أن أهمل هنا ف. فون راسلوف، وهو دنمركي أيضا عمل ضابطا في قوات الفرسان الملكية، ولكنه وضع كتابه، بعد أن أقام في الجزائر حوالي سنة ونصف، باللغة الألمانية، ونشره في ألمانيا عام 1945، وقد جعل عنوانه «نظرة على الأوضاع العسكرية والسياسية في الجزائر في سنتي 1840 و1841». وهذا الكتاب يزخر بمعلومات كثيرة، سمحت له بجمعها الفترة، التي أقامها في الجزائر، وقد اعتذر عما قد يكون هناك من تشابه بينه وبين بعض من أرخو للجزائر أو تحدثوا عن تجاربهم فيما وما اكتسبوه من معارف أثناء ذلك، فهذا التشابه، إن وجد، مرده إلى وحدة المصادر التي ينقلون عنها، وليس مرده النقل عنهم والسطو على كتاباتهم. أما ما عدا ذلك فمصدره ملاحظاته الخاصة وملاحظات من كانت له بهم علاقة شخصية مباشرة، فهو ينكر على المؤرخ أن يتحدث عن أشياء لم يعشها ولم يشاهد وقوعها بنفسه. وقد قدم المؤلف في الفصول الأولى نبذة عن تاريخ الجزائر في القديم وفي العهد التركي، كما تحدث عن سكانها وعاداتهم وتقاليدهم. أما الفصول المتبقية، وعددها ثمانية فصول، فقد خصصها للحديث عن ظروف الاحتلال الفرنسي والمعارك المختلفة، التي خاضها جيش الأمير عبد القادر النظامي مع ما تخلل ذلك من فترات صلح وسلام إلى أن غادر الجزائر، وقد قدمت عرضا لأهم ما كتبه عن جيش الأمير (أنظر مجلة الدراسات التاريخية، العدد المزدوج، 11-12، ص 167-178).

ونجد لودفيغ بوفري في كتابه «الجزائر ومستقبلها تحت الحكم الفرنسي)، الذي صدر عام 1855، يمثل نفس الأفكار، التي بقت عند غيره، فهو يعتبر الجزائر بلادا خصبة،

يمكن استغلالها واستعمارها، ومن ثم فهي مصدر جديد للرزق والحياة الهنية، ويقدم نصائح إلى أبناء بلاده الراغبين في الهجرة، ويشير (ص 18-19) إلى أن هناك أحكاما مسبقة، تتعلق بالهجرة إلى الجزائر، مبعثها عدم معرفة البلاد على حقيقتها والاطلاع على أوضاعها من جهة، وجشع بعض الألمان، الذين وصلوا إلى الجزائر، وما أشاعوه عنها من معلومات خاطئة، يمكن أن توقع غيرهم في ما لا تحمد عقباه من جهة ثانية.

ويصف بوفري المناطق الصالحة للزراعة، ويعترف (ص 19) أن الأوربيين، الذين كانوا عاجزين عن الحصول على قوتهم اليومي في بلادهم، قد تمكنوا من كسب ثروة، تجعل الفرق بين ما كانوا عليه في السابق وما هو عليه الآن واضحا تمام الوضوح، ويقدم لهم هو الآخر معلومات متنوعة عن طبيعة الاتصال بالإدارات الخاصة، التي تسهل له سبيل الانتقال ووسائله إلى المناطق الآمنة ومحاولة الاستقرار فيها. ولا يخلو كتاب بوفري من صليبية، فقد أهداه لنابليون الثالث، ونوه في الإهداء بما سماه بالأعمال الجبارة، التي تقوم بها فرنسا من أجل بناء حضارة جديدة، تحل محل الحضارة القديمة، أي الحضارة الرومانية طبعا، تحت راية المسيحية. ولا يخفي إعجابه بالازدهار، الذي بدأ يعم مناطق الجزائر المتنوعة. على أن هذا لا ينقص من قيمة المعلومات، التي قدمها لنا بوفري، وكذلك الأشعار الشعبية الجميلة، التي نشر في كتابه ترجمتها بالألمانية، ولولاه لما وصلنا شيء منها، وخصوصا القصيدة، التي يمجد فيها شاعر مجهول بطولة الأمير عبد القادر وشجاعته، وقد تكون لها صورة ما في الأشعار الشعبية، التي لا تزال متداولة في منطقة معسكر وما جاورها، وكذلك قصيدة المرأة العاقر، التي تتحدث فيها بطريقة مؤثرة عن وحدتها وسوء معاملة زوجها لها لمجرد أنها تعيش وضعا لا ذنب لها فيه، يجعلها تتمنى لنفسها أن تدفن إلى جانب والديها تحت أغصان النعناع الأخضر (أنظر كتابي الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، ص 206 وما بعدها).

لكن الرحالة والشاعر اللغوي هاينريش فون مالتسان، الذي عاش في الجزائر في فترات متفرقة ما بين عامي 1852-1862، وتعلم فيها العربية، وكانت له علاقات مودة وصداقة مع عدد من أبناء البلاد الأصلاء، مكنته من الاطلاع على نظم الحياة فيها، ودراسة ملامح الشخصية الجزائرية في مختلف أوضاعها الاجتماعية، وقام بعدة رحلات في طول البلاد وعرضها، وكان مجموع ما أقامه فيها حوالي ثلاث سنوات، واستطاع في النهاية أن يؤدي بوصفه مواطنا جزائريا يحمل جواز سفر فرنسي جزءا من فريضة الحج قبل أن يكتشف أمره ويضطر إلى النجاة بنفسه من الموت المحتوم. لقد كتب مالتسان روايتين وقصة مطولة عن الجزائر، وصور بها بعض التقاليد الجزائرية تصويرا دقيقا، ووصف طبيعة البلاد وصفا رائقا ممتعا، وهي «مدخن الحشيش في الجزائر،

وجواهر الباشا، والصف القبائلي»، ضمنها كلها كتابه «صور من التقاليد الجزائرية والتونسية (صدره عام 1869)»، كما كتب قصائد عن بعض المدن والمناطق الجزائرية، نشرها في ديوانها «أصداف الحاج». وقد أورد في مطلع روايته الثانية ثلاثة أبيات بلهجة مختلطة، لا نزال نسمعها يوميا في وسائلنا السمعية البصرية، تسجل مراحل احتلال الجزائر، وهي تستحق التسجيل في هذا المقام أيضا، لأنها مكتوبة بهذا الخليط اللغوي المبتذل. جاء فيها، وقد كتبها المؤلف حسب النطق الألماني:

Spaniol venir, fasir bum bum, makasch tschapar, andar.
Inglis venir, fasir bum bum bum, bassff bum bum, makasch tschapar andar.
Fransis venir, fasir paff paff, fasir schuja, schuja, subito tschapar, makasch andar.

والترجمة الحرفية هي:

الاسبان جاءوا، عملوا بوم بوم، مكاش أخذ، ذهاب،
الإنجليز جاءوا، عملوا بوم بوم، بزاف بوم بوم مكاش أخذ، ذهاب،
الفرنسيس جاءوا، عملوا باف باف، عملوا شوية، شوية، حالا أخذ، مكاش ذهاب.

ولكن أروع ما كتبه مالتسان عن الجزائر هو كتابه «ثلاث سنوات في شمالي غرب إفريقيا»، في ثلاثة مجلدات، تمت ترجمتها ونشرت فيما بين 1975 و1980، أرخ فيها لمختلف المدن والمناطق من العاصمة إلى تلمسان ومناطق الحدود غربا، ومن العاصمة إلى تبسة شرقا، ومن تبسة إلى توقرت جنوبا، وفي النهاية من الجزائر إلى الأغواط وعين ماضي جنوبا، وسجل في كتابه هذا بعض الأوضاع والأساطير والأشعار والجمل، التي لم تعد معروفة في أيامنا هذه على الإطلاق.

ومن الكتب الجيدة عن الجزائر أيضا كتاب غوستاف راش «في اتجاه واحات الزيبان في الصحراء الكبرى. كتاب رحلات عبر الجزائر»، نشره عام 1866، وتناول فيه عبر فصول عديدة قضايا اجتماعية مختلفة مثل الحفلات الدينية، والمحاكم العربية، ومكانة المرأة والفتاة في المجتمع وعند الرجل، وسجن لامبيس، ووصف مناطق صحراوية متعددة وتحدث عن بطولة رجالها في مقاومة الاستعمار، ونوه خصوصا بمعركة قرية الزعاطشة، التي كلفت الفرنسيين، على حد تعبيره، أكثر مما كلفهم احتلال الجزائر عام 1830، فقد قاوم أبطالها، حسب ما رواه له أحد الشيوخ الذين شاركوا في المعركة، ثلاثة جيوش فرنسية مدة شهرين تقريبا، ولكم أسفت لأنني لم أستطيع تصوير هذا الكتاب كاملا أثناء سفراتي المتعددة إلى النمسا لارتفاع تكاليف التصوير!

هذا ولعله قد اتضح مما سبق أن الجزائر كانت بالنسبة للألمان مهجرا جديدا، يستطيع الألماني أن يعيش فيه في هناء ورفاهية ورخاء، كما صرح بذلك فردیناند فنكلمان (ص 61)، فالجزائر بالنسبة إليه مستعمرة رائعة، والألماني فيه أكثر كرامة وعزة من المواطن الجزائري، لأن فرنسا تحمي الألماني كما تحمي غيره من الأوربيين، ولا تسمح للجزائري أن يعتدي عليه أو يتصدى لمقاومته بأي شكل كان، وهو يرضيه أن يكون من رعايا دولة أوربية، وذلك ما جعله يتنبأ (ص 71) بأنه لن يمر وقت طويل حتى يصبح عدد الأوربيين في المناطق الخصبة أكبر من عدد السكان الأصليين.

هذا ولا تخلو كتابات بعض الألمان من إظهار مشاعر العداء للجزائر، التي أهانت أوربا لفترة طويلة، وكان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب في قلوب أبنائها، مما جعل شونبيرغ (ص 62) يعترف بأن اسم الجزائر لا يحمل على التفكير في جمال سمائها، وصحة مناخها، وخصوبة أراضيها بقدر ما يحمل على التفكير في الآلام، التي عرفها العبيد المسيحيون فيها. ولذلك اتسمت كتاباتهم بالطابع الصليبي في بعض الأحيان، فقد أشفت فرنسا غليل بعضهم من الانتقام من الجزائريين، فأصبحوا يصفونهم بالهمجية على غرار ما فعله بقية الأوربيين ممن كتبوا عن الجزائر.

لم أتناول في هذه الدراسة طبعا جميع الألمان الذين كتبوا عن الجزائر خلال القرن التاسع عشر، فهناك مجموعة من كتبهم لم أتمكن من الاطلاع عليها، مما جعلني أقتصر على البعض ممن أتاحت لي مجهوداتي الفردية الاطلاع على ما كتبوه عنا، فتمكنت من تصوير قسم ضئيل منه بصورة كلية أو جزئية في مكتبات كل من كييل وميونيخ وفيينا وبرلين على التحديد، ومع ذلك أرجو أن أكون قد قدمت فكرة تقريبية عن مصادرهم وأغراضهم، وليس من المستبعد أن تكون لهم أغراض خاصة لم يصرحوا بها، واحتفظوا بها لأنفسهم في وثائقهم الخاصة أو في وثائق بعض الجهات، التي مدت لهم يد العون للقيام برحلاتهم. وقد سألت عن وثائق مالتسان ومحفوظاته مثلا، فقيل لي إنها احترقت أثناء الحرب العالمية الثانية في مدينة دريسدن مسقط رأسه. وكيفما كان الأمر، فإني لا أزال أتمنى أن تمكنني الظروف والصحة المعتلة من اقتناء وثائق أخرى -دائما في إطار المجهودات الخاصة، لأن الجهات الرسمية لا تقدم للباحث المنح، التي تمكنه من جمع الوثائق، وتصوير المستندات، وإنما تقدم له ما يمكنه من القيام بجولة سياحية لبضعة أيام هرمة!- في مظانها، حتى أستطيع تقديم معلومات أخرى قد لا تخلو من فائدة في مجال إعادة كتابة تاريخ الوطن في فترة الاحتلال خاصة، ولا ريب أن معرفة مفاخر ماضيه معرفة صحيحة أصلح ضمان وأسماه للمحافظة على مستقبله والدفاع عنه.